٢ - إلى المعترضين علينا

للأب أنستاس مارى الكرملى

٣ - هل المفضلات

إننا لم نفكر يوماً ، بل دقيقة ، بل لحظة عين ، أنّ نعت جمع التكسير يكون مفرداً مؤنثاً ، أو جمعاً على السواء ، والمطبوعات التى عنينا بنشرها - من تآليف ومقالات - مما طبع ولا نزال نتولى طبعه فى المجلات والجرائد والكتب ، تشهد شهادة تفقأ فى العين حصرماً ، وتذرّ فيها رماداً ، فى الوقت عينه بأننا عملنا - ولا نزال نعمل - بهذه الضابطة المطردة ؛ ومن نسب إلينا الخلاف ، فهو أعمى أو يتعامى ، ولا يهمنا أمره ، إنما إنكارنا كان لما كان على أفعل فعلاء وجمعهما على فعل لا غير ؛ إذ لا يوصف الجمع المكسر والصحيح بغير هذه الصيغة الأخيرة ؛ فإنك لا تقول ألبتة : رجال سوداء ، ولا نساء سمراء ؛ ولا نهارات زهراء ، ولا ليلات بيضاء ؛ حتى أن العوام لا تنطق بها . وكذلك لا تقول : كريات بيضاء ، ولو علقتْ برجليك تلك الكرىّ دهوراً وعصوراً ، توبة وندامة على ما سلف من أغلاطك ، وعلى ما فرطت فى حياتك

فالذى أنكرناه إذن - ولا نزال ننكره - هو قولك : كريات بيضاء ... فهذا كفر نحوىّ عربىّ لم تنطق به العوام ، ولا الأعاجم ولا الأروام ! !

وقال أحد المعترضين[1] المعاندين الذى لا يريد أن يهتدى إلى سواء السبيل : وبحسب قاعدة الكرملى ، لا يجوز نعت المنازل بالأخرى ولا بالأولى ، كما جاء فى قول المتنبى :

هذى منازلك الأخرى نهنئها فمن يمر على الأولى يسليها !

لكن ، هل يستطيع هذا المخالف أن يقول لنا : أين رأى كلامنا هذا ؟ أليس هذا كذباً منه وبهتاناً وافتئاتاً ؟ ! فهل فى « أولى » و « أخرى » لون ، أو عيب ، أو حلية ؟ وهل تجمعان على « أول » و « أخر » بضم أوليهما ؟ أفليس هذا مخالفاً للشرط الرابع ؟ فما هذا التعامى والعمى أجارنا الله منه ؟

(١) راجع مجلة المجمع العلمى العربى فى ١٢ : ٢٢٣ - ٤٧٨

وأما قول الخصم : إن « المتنبى » قال :

« وبساتينك الجياد وما تحـ ـمل من سمهرية سمراء »

فالسمهرية هنا مفردة والسمراء كذلك . والمفردة هنا منكرة تدل على جمع ، فهى من قبيل وضع الواحد موضع الجمع ، وهذا معتاد فى أسماء الأجناس . قال هذا على فى المخصص ١ : ٦٨ .

وقال هذا المعترض المسكين المغرور : السماع يؤيد القياس فى هذا الشأن ، فمن السماع قول طرفة :

ويوم رأينا الغيم فيه كأنه سماحيق ترب وهى حمراء حرجف

قلنا : (حمراء) هنا مجاورة (لهي) ، وهى مفردة مؤنثة فحمراء صحيحة لما أشرنا إليه فى الشرط الخامس

وقال المعترض أيضاً ، محاولاً بكل قواه أن يضع رأيه الجامح موضع رأى ناجح ، وذلك من العبث ، فقال : « ومن ذلك قول الفند الزمانى معاصر المهلهل »[1]

« بقيت بعده الجليلة تبكى والخدود العيطاء تدعو لحاها »

ثم قال : « هكذا جاء فى روضة الأدب (ص ١٨٥) ، وشعراء النصرانية (ص ٢٤٣) » انتهى .

قلنا : وحسناً فعل حين قال : « هكذا جاء فى روضة الأدب وشعراء النصرانية ، لأن سليقته تقول له : ليس هذا العجز من العربية فى شىء ، إنما هو باللغة الشويرية[2] ، ولم تكن هذه اللغة يوماً لغة فصيحة ، بل خليطاً من العربية ، والرومية ، واليونانية ، والزعفرانية ، والجلجلوتية !

زد على ذلك أن صاحب روضة الأدب اسكندر آغا أبكاريوس وهو أرمنى فاسد الذوق العربى ، فهو غثاء سيل ؛ وصاحب شعراء النصرانية شيخو ، وكان رحمه الله - حاطب ليل ، على ما اشتهر عنه فى سورية والعراق وديار النيل ، فوقعنا بين غثاء سيل وحاطب ليل ، لكن لا عتب على الأب شيخو ، لأنه نقل أبياته الزمانية عن الأرمنى المذكور ، وهذا الرجل يكتب الأرمنية بحروف

(١) نحن لا نعلم ما نصلح من مقال المخالف : أرأيه النحوى ، أم عبارته ، أم الأعلام التى يتعرض لذكرها . إننا لم نجد أحداً من الفصحاء ذكر هذا الشاعر باسم (المهلهل) إنما ذكروه بلا لام التعريف ، إن الأب لويس شيخو ذكره باللام فى شعراء النصرانية ، لكن متى كانت هذا الأب - رحمه الله - حجة فى العربية ؟

(٢) الأستاذ الكبير الشيخ أمين ظاهر خير الله من الشوير ، (كزبير) مركز مديرية من محافظة المتن فى لبنان .

عربية ، ويتوهم أنه يكتب المضرية ، وإلا فما معنى قول الفند : « الخدود العيطاء » ، وهل كانت أو تكون أو ستكون ، أو سوف تكون ، يوماً ، الخدود عِيطاً (بكسر العين وإسكان الياء) . فالعيطاء مؤنث الأعيط ، والأعيط على ما فى معاجم اللغة : « الطويل الرأس والعنق ، والأبى الممتنع » فما معنى العيطاء وكيف تتفق مع الخدود ؟ اللهم إلا أن يكون معناها غير هذا فى إحدى اللغات الثلاث : الماللطية والوقواقية ، أو الشنقناقية ؛ لكنى أقر معترفاً إنى أجهلهن كلهن . ولعل حضرة المجادل يفهمهن ، فيفسر لنا الكلمة فى موقعها هنا !

ثم لو فرضنا أن لها معنى غير مدون فى كتب متون اللغة فليس ذلك دليلاً على أنها وردت فى كلام الشاعر الأصلى ، إذ البيت ظاهر الوضع وليس من كلام الأقدمين .

ثم لو فرضنا ثانياً أن لها معنى حسناً يناسب المقام هنا ، فإن الفند الزمانى كان من ربيعة بن نزار ، والعربية الفصحى لم تنقل إلا عن قريش ، وأسد ، وتميم ، وقيس ، وكلهم من مضر ، فكيف يستشهد بكلام من هو من ربيعة ؟

ثم لو فرضنا ثالثاً — وهو أمر قريب من المحال — أن المجادل وجد لنا عشرة أبيات شعر ممن يستشهد بكلامهم وفيها ما يثبت دعواه ، فليس ذلك بشىء ، لأن شواهده ليست من القرآن ، ولا من الأحاديث النبوية ، ولا من كلام الفصحاء ، والبلغاء ، الأثبات ، إذ لا يكون الكلام ممن يوثق به إلا إذا جاء منقولاً عمن أخذت عنهم العربية المضرية الفصحى .

ثم لو فرضنا رابعاً أنه أتانا بعشرة شواهد ممن يوثق بعربيتهم من قريش ، وأسد ، وتميم ، وقيس ، فعشرة شواهد غير كافية لوضع قاعدة .

ثم لو فرضنا خامساً أن العشرة الشواهد التى جاءنا بها من فحول شعراء مضر ومن عشرة منهم ، فإننا لا نقبل الشعر فى اتخاذ القياس ، لأن النظم يتحمل ضرائر لا يقبلها النثر ، فنحن لا نرضى إلا بنثر رصين يذكر مثل تلك الكلمة أى الكريات البيضاء ، وإلا فنصيب تلك الشواهد سلة المهملات ، أو سلة المحترقات

فليتدبر حضرة مخالفى هذه الأقوال كلمة كلمة ، ثم يتعرض للرد علىّ رداً معقولاً يفهمه الناطقون بالضاد لا أبناء الثور فقط

وقال أيضاً المعترض : « ورد فى كتب النحاة كشروح ألفية ابن مالك ، وفى المعاجم كالقاموس والتاج : جاؤوا الجماء الغفير ، أى يقال : جاء العلماء الجماء الغفير »

لله درك يا سيدى من عالم بارع ولغوى عظيم ! إننا لم نجد فى التآليف التى تشير إليها ما تقول . ففى أى طبعة من طبعاتها ؟ وفى أى بلد من البلدان طبعت تلك المصنفات ؟ وفى أى سنة من السنين نشرت ؟ إنك لم تقل لنا كل ذلك . أما فى الكتب التى بأيدينا فإنها لا تقول ما تدعى . وكيف يكون كلامك صحيحاً وفيه من الخطأ ما ارتعد له الملأ الأعلى ، وأهل الأرضين السفلى !

كيف يكون معنى جاءوا الجماء[1] الغفير : جاء العلماء الجماء الغفير ؟ ففى أى لغة تتكلم ، وهل تفهم ما تقول يا سيدى اللغوى القدير ! أما نحن فنخالفك ؛ فقد يقال : جاءوا الجماء الغفير من غير أن يكونوا علماء ؛ إذ قد يكونون عواماً وسوقة ، فأين وجدت ما تقول ؟ إننا نرى فى تاج العروس فى باب (جمم) ما هذا نقله : (وجاءوا جماً غفيراً ، والجماء الغفير) أى (بأجمعهم) قال سيبويه : « الجماء الغفير من الأسماء التى وضعت موضع الحال ، ودخلتها اللام والألف ، كما دخلت فى العراك من قولهم : أرسلها العراك » اه . المقصود من إيراده وهنا كلام القاموس وكلام التاج أيضاً ؛ فالذى بين هلالين هو للقاموس وما بقى هو للتاج على ما هو مقرر فى هذا الديوان اللغوى

فيا سيدى وأستاذى العزيز ، على من تريد أن تمر عباراتك وآراؤك ؟ وقراء هذه المجلة كلهم يفهمون ما تكتب وما تحاول أن تعبره عليهم من الأحلام والمنامات ، وما شابه هذه الترهات والخزعبلات وأضغاث الأحلام

وقال حضرة سيدى وأستاذى الجليل : « وفى شرح الزوزنى القاضى قول الحارث اليشكرى : « وله فارسية خضراء » يقول : « وله دروع فارسية خضراء » فهذا كلام لا غبار عليه ، لأن خضراء هنا مجاورة لفارسية ، وفارسية كلمة مفردة مؤنثة وإن كان معناها يدل على جمع لأنها عائدة إلى (دروع) . فراجع الشرط الخامس لتفهم سبب هذا القول ، وإن كان يجوز لك أن تقول أيضاً : « وله دروع فارسية خُضْر » وهذه أفصح من تلك

(١) ومثل الجماء : السراء ، والضراء ، والبأساء ، والضحضاء ، والسوءاء ، إلى نظائرها